سحر مندور

لا مخطوفَ لي. لكني أشعر بالفقدان. وأشعر أيضاً بالرعب كلما مررت بالقرب من مدافن مار متر. وهو ليس الرعب الناتج عن المعرفة، معرفة أن مقبرةً جماعية ترقد هنا، تحتنا، بالقرب منا. فسكّان المقابر الجماعية هم أهلُ أناسٍ مثلي، وأطفالُ أناس مثلي، وأصدقاء أناسٍ مثلي.. هم لا يخيفون أناساً مثلي. لكنه رعبٌ ناتجٌ عن الغياب التام للإرادة الرسمية القاضية بإخراج المقبرة من حال الجريمة. الجريمة تبقى حيّة، طالما المقبرة التي أخفتها حين وقوعها، لا تزال تخفيها. الجريمة تبقى طليقة، بلا جسمٍ يبرهن وقوعها، يقيّدها. وكلما أمرّ بالقرب من مدافن مار متر، أنظر برعب نحو الجريمة المخفية تحت الأرض، وأعرف أنها الترجمة الدقيقة لكل ما يجري فوقها.

وستبقى الجريمة ماثلةً تحت الأرض، طالما مَن أخفاها هناك، هو الذي يمتلك سلطة إخراجها من هناك.

وبذلك، يصبح الرعب أكبر.. إذ ليست الجريمة وحدها هي النابضة تحت أرض الوطن، لكن القاتلَ أيضاً ماثلٌ في صلب صورته الرسمية. تراهم وقد ارتدوا الملابس الجديدة الأنيقة، فصّلوها تبعاً لأحدث التصاميم وبأغلى الأقمشة، بدّلوا النبرات ونظرات العيون، لكنهم هم ذاتهم. نعرفهم. أعرفهم. أراهم بالسكين الدامي يلوّحون من وراء تلك البدلة.. تماماً كما تلوح المقابر الجماعية من تحت سطح الأرض.

منذ سنوات طويلة، يطالب أهالي المخطوفين بهيئة وطنية تُعنى بالقضية، تُخرج القتلى من تحت الأرض، تعيد إليهم أسماءهم، تحفظ من الأحياء علامات جينية، ليدلّوا بها على الأموات من المخطوفين والمفقودين والمخفيين قسراً. هيئة، بقانونٍ مفصّل ينظم عملها، بحيث تخضع قصة الموت لمنهجية الحياة، تفكّك الرعب والوجع فيها، وتعيد صياغتهما في سياق الحداد البنّاء، إن للأهالي البيولوجيين أو لنا جميعاً، نحن المواطنين العالقين في برزخ هيستيري يفصل ما بين حربٍ لم تنته وسلامٍ لم يبدأ، حسبما يجمع خطباء المنابر، بلا أي ترجمة واقعية لما "يجمعون" عليه.

إصرارٌ، ومطالبة، وابتكار في تقديم الصور، كي لا يفخّخ السأم عين المواطن وأذنه، تماماً كما يسدّ عين المشرّع وأذنه.. حاولت لجنة الأهالي كثيراً، حتى أنهم كتبوا القانون المنشود. لكن رجال الدولة اللبنانية لا يعملون هكذا. الدولة التي بناها مَن هدّوا لبنان ووضعوا سكّانه في مقابر جماعية، لا تعمل هكذا.

فرجال هذه الدولة لا يريدون لأي شيء أي يتغيّر، لأن كل شيءٍ على ما يرام، فقد أنتجوا الدولة التي تتيح لهم أن يقودوها. لن يغيروا شيئاً لذلك، لا لأن جزءاً كبيراً منهم متهم بقتل النائمين في المقابر الجماعية.. فهم لا يخافون من عقاب، ولا تؤرق بالهم تلك الجريمة. وهم لن يغيروا شيئاً، طالما الحال القائمة تضمن قوامتهم عليها.

منذ سنوات طويلة، يسعى أهالي المخطوفين. ولم يبلغوا اليأس المطلبي الذي تراهن عليه الدولة عادةً قبل أن تضطر لإيجاد مخرجٍ من ضجيج الناس. تغلّب صبر الأهالي على يأسهم، فاضطر رجال الدولة إلى استرداد الملف منهم، وكأنهم بذلك يخفونه قسرياً في زمن السلم، بعدما أخفوا المعنيين به قسرياً في زمن الحرب.

الدولة تجهّز لولادة الهيئة، بمرسومٍ بدلاً من قانون مفصّل يشرّعه البرلمان. وفي المرسوم، ميّز رجال الدولة ما بين المخفيين قسراً وسواهم من ضحايا المجازر الجماعية، وكأن النائمين في المقابر يقوون على سرد قصص وصولهم إليها، أو يرضون تمييزهم ضمنها. "اختفى قسراً"، ولم يقتله مجرمٌ يحكم دولة. لم يقتله أحد، أصلاً، ولا كانت حرباً، ولا كانوا هم أمراؤها. كل ما لا يجري الآن، لا سياق له في هذه الدولة. لا الأمس يشهد عليها، ولا الغد يعنيها. جلّ ما يهمّها هو إسكات هذا الضجيج.. هذا الضجيج المزعج.

هيئةٌ لا وظيفة لها إلا جمع أقوال الأحياء عن ذكريات الأموات، إذاً. لا بصمة جينية، ولا فتح مقابر.. مجرد حشرية لا تقود إلى نتيجة، ومهمّةٌ لا تعريف لها، بحيث، بعد ست سنوات، سيسري بهدوء بال، بند حلّ الهيئة إذا لم تنجز مهامها، حسبما يقول المرسوم.. ولربما لا تُحلّ بعد ست سنوات، إذ قد يجد السياسيون فيها أبواب رزق لمنتفعيهم، فلمَ يقفلونه؟

الفعل ذاته أقدمت عليه هذه الدولة لكمّ أفواه حملات مطلبية بعناوين كثيرة، كحق المرأة في منح جنسيتها لعائلتها، وتجريم العنف الأسري ضدها. هي آلية تفريغ المطلب الذي ارتفع صوته كثيراً في مرسومٍ تبسيطي، لا يعيد الحق لأصحاب الحق، ولا يكون سقفه العدالة، وإنما هدوء بال الحاكم: قانونٌ لئيم عن عنفٍ عام، يُسكت المرأة المعنّفة في عائلتها. وإقامة مجانية لعائلة "اللبنانية" كبديلٍ عن الجنسية، كبديل عن العدالة.

لا تريد الدولة القائمة على توازنات شديدة الدقة بين مصالح رجال الدين ورجال الأعمال، أن تأتي أيّ فعلٍ يخلّ بها.. وهي توازنات بلغت من الدقّة مطرحاً بات يتطلب الجمود التام.

هذه الدولة.. إنها تعيق الحياة السويّة في لبنان، وتعيق الموت السويّ فيه أيضاً.

لكننا هنا.

فلنصبر.. لأن الدول التي أخفت ضحاياها في مقابر جماعية، لم تدم لمجرميها.

الشعب، الناس، هم أصحاب الأرض..

وسيرثونها هنا، بما تحمله على سطحها.. وبما تخفيه في باطنها.

(ندوة في الجناح المخصّص لجريدة السفير خلال معرض الكتاب العربي لعام ٢٠١٢،

في مركز البيال – بيروت)